أن أكتفي بالقواعد الأربع الآتية على أن أوطد النية والعزم على ألا أخرج عنها في حياتي أبداً

١ — طريقة الوضوح

فالقاعدة الأولى هي : ألا أنظر إلى أي شيء بعين الحقيقة إلا بعد أن أدرك أنه كذلك . ومعنى هذا أني أتلافى التسرع والتنبؤ ، ولا أتبنى من الآراء إلا ما تجلى لعقلي بوضوح وسرعة يحولان دون الشك فيه

٢ — طريقة التحليل

والقاعدة الثانية هي : تجزئة كل مشكلة من المشاكل التي أقوم بدراستها إلى أكبر عدد من الأجزاء يمكن ويجب أن تنقسم إليه ، وذلك للتمكن من حلها على أصلح وجه

٣ — طريقة التدرج

والقاعدة الثالثة هي: تسيير تفكيري بانتظام ، فأبدأ بأبسط الأمور، وأسهلها فهماً وأصعد تدريجاً لمعرفة أكثرها تعقيداً مع افتراض وجود النظام أيضاً بين الأمور التي لا يتعلق بعضها ببعض

٤ — طريقة الإعادة والاستقصاء

أما القاعدة الرابعة والأخيرة فهي : القيام باحصاءات تامة ، في كل لحظة، والقيام باعادات عامة، لأتأكد من أني لم أهمل شيئاً

أحمد محمد عيتاني

عضو بعثة جمعية المقاصد في معهد التربية

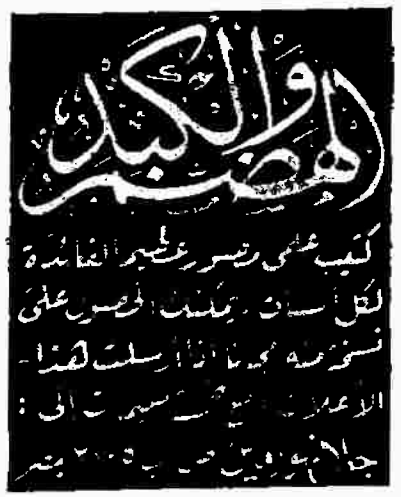

الأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٣٧ —

مقالاته للرسالة (٨)

هلّ هلال المحرم ، وتهيأت الرسالة لاصدار (العدد الممتاز) في ذكرى الهجرة ، فكتبت إلى الرافعي فيمن كتبت من أسرة الرسالة ، تطلب إليه أن يهيئ موضوعاً مناسباً لذكرى الهجرة ، وضربت له أجلا . واستبق الرافعي الميعاد فأعدّ قصة «اليمامتان» وبعث بها إلى الرسالة قبل موعد العدد الممتاز بأكثر من أسبوع. وحسبت الرسالة أنه بعث إليها بمقاله الأسبوعي المعتاد ، وأنه ما يزال يعدّ موضوعه للعدد الممتاز ، فنشرت قصة اليمامتين قبل موعدها ، وكتبت إليه تستنجزه المقال الثاني . وكان الرافعي متعب الأعصاب ، يشكو وجعاً في أضراسه يثقل رأسه ، وقد غاظه أن الرسالة فوّتت عليه الفرصة فسبقت إلى نشر القصة التي أعدها للعدد الممتاز قبل موعدها وتركته في حيرته ، ولم يجد في نفسه خفة إلى العمل ، فذهب إلى أوراقه القديمة يفتش بينها عن موضوع خليق بالنشر في هذه المناسبة ، فوقع على مقالة «حقيقة المسلم» ، وكان كتبها قبل ذلك بسنتين إجابة لدعوة جمعية الكشاف المسلم لشام ، ونشرها بالأهرام في ذكرى المولد النبوي لسنة ١٣٥٢ هـ فبعث بها إلى الرسالة لتنشر في العدد الممتاز لسنة ١٣٥٤ هـ

يتحدث الرافعي في قصة اليمامتين عن الفتح الاسلامي ، وأخلاق العرب ، وتعريب مصر الفرعونية الرومانية ، وفتنة القبط بسجايا العرب ومزايا الاسلام ؛ وفيها إلى ذلك حديث عجيب عن الحب والمرأة في قصة خيالية افتعلها الرافعي ليبلغ بها ما في نفسه من معاني الحب ؛ ثم جعل في خاتمتها « نشيد اليمامة »

النيامة التى تقول الرواية العربية إنها تحرّمت فى جوار عمرو ابن العاص فمنعته أن يقوّض فسطاطه !

كان لهذه القصة عند الرافعي وعند قراء الرسالة عامة موقع لم تبلغه قصة سعيد بن المسيب . وقد افتتن بها كثير من القراء ، حتى كان منها أن اهتدى إلى الاسلام أستاذ مسيحى من أساتذة التاريخ فى بلاد الجزائر ، فكتب إلى الرافعي رسالة يعلن فيها إليه إسلامه ، ويسأله الوسيلة إلى دراسة هذا الدين والتفقه فيه . ولم أعثر بعد على هـذه الرسالة بين ما خلّف الرافعى من رسائل أصدقائه إليه

ومن اعتداد الرافعى بهذه القصة وبما بلغ فيها من التوفيق ، جعلها فاتحة كتابه « وحى القلم »

* * *

ولم يكفه أسبوع للاستجمام والخلاص مما يعانى من وجع الضرس وتعب الأعصاب ، فاستراح أسبوعاً آخر وبعث إلى الرسالة بالجزء الثالث من « كلمة وكليمة »

ثم وقعت حادثة اهتزت لها نفس الرافعى اهتزازاً عنيفاً ونقلته من حال إلى حال ...

جلست يوماً إليه نتحدث من أحاديثنا ، فقال : « . . . إن صديقنا الأستاذ . م . لم يكتب إلينا من زمان .. ليت شعرى ما منعه عنا . إن بى قلقاً عليه وفى نفسى أن أراه أو أعرف من خبره ! »

وفي صبيحة اليوم التالى طالعتنا الأهرام بخبر غامض : « .. أن شاباً من الأدباء ، هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، قد حاول الانتحار بقطع شريان فى يده ! »

وقرأ الرافعى الخبر فاربدّ وجهه وانفعلت نفسه ، وقال : « اقرأ ، إنه هو ... ! »

قلت : « من تعنى ؟ »

قال : « صديقنا الأستاذ . م ، لقد غلبه شيطانه على دينه آخرة أمره . غفر الله له ! »

فجزعتُ وطارت نفسى ، وقلت له وأكاد أغصّ بريقى : « م ؟ إنك لتتوهم ، وإنك مما تفكر فى شأنه لَيُخيل إليك . إن لصديقنا لديناً ، وإن فيه لتحرُّجا وخشية ؛ وما أراه فى أى أحواله يقدم على هذه الجريمة ! »

ولكن الرافعى لم يلتفت إلى ما أقول ، وأخذ يحوقل ويسترجع ويستعيذ بالله من غلبة الهوي وفتنة الشيطان . ثم مد يده إلى مكتبه فكتب رسالة إلى م يسأل عن حاله ويخبره ويرجو له العافية فى دينه ودنياه ؛ ثم يطلب إليه أن يصف له ما كان منه وما حمله عليه وما آل إليه أمره ؛ ولم ينس مع كل أولئك ومع ما تفيض به نفسه من الحزن والألم أن يرجوه « الدقة فى وصف المرحلة التى كان فيها بين الحياة والموت ؛ فانها المرحلة التى لا يحسن أن يصفها إلا من أحسّ بها ... »

وصديقنا الأستاذ . م . أديب واسع المعرفة ، له دين ومروءة ، وفيه تحرج وخشية ؛ وقد نشأ فى بيت له ماض فى الدعوة إلى الاسلام والدفاع عنه والذّود عن حرماته ؛ وهو شاب عزب ، بعيد الخيال ، دقيق الحس ، مرهف الأعصاب ؛ وعلى أنه يعيش فى ظل وارف ونعمة سابغة ، فانه من سعة خياله ودقة حسه وحدة أعصابه متشائم النظرة ، لا تراه إلا رأيت فى وجهه وعلى طرف لسانه معنى دفينا من معانى الألم ؛ وما يرى نفسه فى أكثر أحواله إلا غريبا فى هذا العالم وبين هذا الناس ؛ فان له من خياله دنيا غيرَ دنيا الناس ، وعالماً غير هذا العالم ، يتمثل فيه المثل الأعلى الذى أعياه أن يبلغه على هـذه الأرض . وكان بينه وبين الرافعى ودٌّ وله فى نفسه مكان ؛ فكان له سره ونجواه منذ كان فتى يافعاً لم يبلغ العشرين . وكان الرافعى يعتد بصداقته ويقرّ إليه ويعجب بدينه وتقواه ويتوقع له مستقبلا مجيدا بين المجاهدين من أهل الأدب ودعاة الاسلام .

فلما بلغ الرافعى نبأ شروعه فى الانتحار جزع وتطير وضاقت نفسه ، ونأله من الهم ما لم ينله لحادثة مما لقى من دنياه . فمن أجل هذه الحادثة أنشأ الرافعى مقالات « الانتحار »

ولم يكن الرافعى يعلم من أحوال صاحبنا ما دفعه إلى هـذه المحاولة الطائشة ؛ فأخذ يتكهن وينتحل الأسباب ليبنى عليها الحديث والقصة ؛ فما جاء جواب الأستاذ (م) إلا بعد المقالة الثالثة ، فأخذ من هذا الجواب مادة الجزء الرابع من هذه المقالات ، وجعل الحديث فى هذا الجزء على لسان « أبى محمد البصرى » وهو يعنى الأستاذ (م) ، فهو هو وكلامه كلامه فى جملته ومعناه ، لم يغير منه الرافعى إلا قليلاً من قليل . فما يدل على

حالة صاحبنا إلا المقالة الرابعة من هذه المقالات الست . أما ما عداها مما سبق أو لحق ، فهي قصص مفتعلة من وحي هذه الحادثة في نفس الرافعي

ومقالات الرافعي في « الانتحار » هي باب من الأدب لم ينسج على منواله في العربية من قبل ؛ فيها فنه القصصي ، وفيها روح المؤمن الذي لم تفتنه دنياه عن ربه ؛ وفيها إلى ذلك شعر وفلسفة وحكمة ، وقلب رجل يعيش في حقيقة الحياة

* * *

وكان بين الرافعي والأستاذ حسن مظهر محرر اللطائف المصورة مودة . فلما تولى تحرير اللطائف كتب إلى الرافعي يرجوه أن يكتب فصلاً لقراء اللطائف عن « سحر المرأة » ؛ فكتب فصلاً بديعاً يصف فيه نفسه وصاحبته (فلانة) في أول لقاء بينهما

فلما فرغ من مقالات « الانتحار » تناول هذا الفصل فزاد فيه ما زاد وبعث به إلى الرسالة بعنوان « ورقة ورد » لأنه سار فيه على نهج كتابه المعروف « أوراق الورد » فهذا الفصل عنده هو من تمام هذا الكتاب

* * *

وكان من زملاء الرافعي في محكمة طنطا الأديب فؤاد ... وهو شاب له ولوع بالأدب ؛ وعلى أنه زوج وأب ، فانه كان بأناقته ولباقته مرمى أنظار كثير من الفتيات ، وكان له في الغرام جولان ...

ثم فاء إلى نفسه بعد حين ، فانصرف عن اللهو والنزل إلى شئون أسرته وولده ؛ وراح ينشر بعض مغامراته الغرامية في إحدى الصحف الصغيرة التي تصدر في طنطا ...

وقرأ الرافعي بعض ما ينشر صاحبنا ، فرأى « علماً جديداً » لم يدخل إليه من باب ولم يقرأه في كتاب ؛ فأرسل يستدعي صاحب هذه المقالات إليه ليفيد علماً من علمه ومن تجاربه ... !

وجلس صاحبنا يتحدث إلى الرافعي ويقص عليه ، والرافعي صاغ إليه ملذوذ بما يسمع ؛ فما انتهى صاحبنا من حديثه حتى كان على موعد مع الرافعي أن يحضر له طائفة من مذكراته ورسائل صواحبه ، لعله يجد فيها موضوعاً يكتبه لقراء الرسالة

فمن هذه المذكرات ومن هذه الرسائل استملى الرافعي مقالات « الطائشة » و« دموع من رسائل الطائشة » و« فلسفة الطائشة » ...

فهذه القصة حقيقية لا افتعال فيها ، وليس فيها شيء من صنع الخيال ؛ وما حكى الرافعي من رسائل الطائشة هو من رسائلها نفسها كما نقلها إليه صاحبها ؛ وفلسفتها هي فلسفتها كما فهمها الرافعي من رسائلها ومما كان من أمرها مع صاحبها

لقد نال الرافعي من ملامة الفتيات ما ناله بسبب هذه المقالات ، وقرأها أكثر من قرأها منهن على أنها قصة من الخيال اخترعها الرافعي ليحتج بها فيما يحتج لمذهبه في الحب والمرأة وتجديد الأخلاق . والحقيقة فيها هي ما قدمت ؛ وقد زاد الرافعي إيماناً بمذهبه بعد هذا الذي سمع من صاحبه وقرأ من مذكراته ومن رسائله !

ولم يكتب الرافعي قصة « الطائشة » على أنها قصة ؛ إذ كان صاحبها قد كتب قصتها على طريقة من فنه ؛ فآثر الرافعي أن يتناولها من أطرافها ليحكم بها حكمه ويتحدث عن رأيه في طائفة من فتيات العصر ؛ فترك سلب القصة ليكون حديثه عن التعليق والحاشية

وقد قرأت القصة مع الرافعي كما أنشأها كاتبها ؛ فكان الرافعي يقف عند كثير من عباراتها موقفاً بين الاعجاب والدهشة ؛ إذ كان مؤلفها يكتب ما في نفسه كما هو في نفسه ، فكان فيها وحي عاطفته ونبض قلبه ويقظة روحه ، فجاء بأدق ما في الفن وأبلغ ما في التعبير غير قاصد إلى شيء من ذلك ، وما كان يبلغ شيئاً من ذلك لو أنه قصد إليه ؛ إذ لم يكن هو بين أهل البيان في هذه المنزلة ، ولكنه كان من أهل الحب ؛ وكان هذا هو دليل (الصدق) عند الرافعي فيما كتب صاحبه وما نقل إليه من قصة صاحبته ...

ولما كتب المقالة الثالثة « دموع من رسائل الطائشة » خلا إلى نفسه أسبوعاً ليستجم ، وبعث إلى الرسالة بالجزء الرابع من : « كلمة وكليمة » وفيها حديث عن العقاد[1]

وفي هذا الأسبوع كان الرافعي يجمع خواطره حول ما سمع من قصة الطائشة ، فأنشأ مقاله الرابع بعنوان «فلسفة الطائشة»

(١) العدد ١٠٥ سنة ١٩٣٥

ثم أملى علىّ مقالة « كفر الذبابة » يعنى بها الحكومة التركية لبعض ما ذهبت إليه فى شئون الاسلام والعربية . وهى آخر ما أنشأ من الفصول على أسلوب كليلة ودمنة

وكانت مقالة « كفر الذبابة » هى آخر ما أملى على من المقالات ؛ وذلك فى صيف سنة ١٩٣٥ . ثم تهيأ للسفر إلى مصيفه فى « سيدى بشر » ، وتهيأت للسفر إلى القاهرة لبعض شئون العمل المدرسى . وانتقلت بعدها إلى القاهرة فكانت فيها إقامتى ، فلم أكن ألقاه أو يلقانى إلا ساعات كل أسبوع : فأسبوعاً أزوره فى طنطا ، وأسبوعاً يزورنى فى القاهرة . على أن الرسائل فيما بين ذلك لم تنقطع بيننا حتى يناير سنة ١٩٣٧ ، قبل موته بضعة أشهر . ثم تجافينا لشأن ما ، فما التقينا إلا مرة واحدة قبل موته بشهرين ، فكان لنا مجلس فى قهوة « بول دور » بالقاهرة مع الأصدقاء : شاكر ، وزكى مبارك ، وكامل حبيب ، وزيادة ؛ ثم افترقنا بعد منتصف الليل وفى نفسى منه شىء وفى نفسه منى ...

وفى صبيحة الغد بدأت المعركة الأخيرة بينه وبين الدكتور زكى مبارك حول « وحى القلم »

... ومضى شهران بعد تلك الليلة لا ألقاه ولا يلقانى ؛ وهو يشكونى إلى صحابتى وأشكوه ؛ حتى جاءنى نعيه ... غفر الله لى !

لكأنما كانت هذه القطيعة بيننا وقد دنا أجله ، لتخفف عنى وقع المصاب من بعد ؛ أو لتحملنى — غير محمول من أحد غير واجبى — على كفارة الذنب الذى أذنبت بهذه القطيعة ؛ فأبذل ما فى الطاقة من الجهد الجاهد لكتابة هذا التاريخ فأقوم له بعد موته بالحق الذى عجزت عن وفائه فى حياته . يرحمه الله !

* * *

... لم يمل علىّ الرافعى شيئاً بعد مقالة كفر الذبابة ؛ ولكنه طلب إلىّ أن أنسخ له صورة من مقال كان نشره فى المقتطف قبل ذلك بسنوات عنوانه « سر النبوغ فى الأدب »

فلما سافر إلى مصيفه بعث إلى الرسالة بمقالة « كلمات عن حافظ » لمناسبة ذكراه ؛ ثم أصابته قُرحة فى كفه منعته من العمل ، فأخذ مقالة « سر النبوغ فى الأدب » فجعل عنوانها « الأدب والأديب » ثم جعلها مقالة الأسبوع التالى . وهى مقالة من مقالات الرافعى الفريدة ، تهم الباحث الذى يريد أن يدرس الرافعى صاحب « تاريخ آداب العرب »

ثم توالت مقالات الرافعى يمليها على نفسه ويكتبها بخطه ؛ على أنى بما كنت ألقاه وبما كان بينى وبينه من الرسائل إلى ما قبل موته بأشهر ، لم يفتنى أن أعرف دوافعه إلى كثير مما كتب بعد ذلك من المقالات لقراء الرسالة ؛ فسأحرص — تماماً لهذا البحث — على أن أذكر ما أعرف من دوافع بعض المقالات التى أنشأها وحدها من بعد غير معتبر ترتيبها فى النشر ، إذ لا عماد لى فيما أكتب عنها إلا الذاكرة .

« سيدى بشر » محمد سعيد العريان